مجلة العلوم القانونية و الاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

البحرية الجزائرية ودورها في إنقاذ ودعم الأندلسيين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م

The Algerian Navy and its role in saving and supporting the Andalusians after the fall of Granada in 1492 AD

مصطفى داودي*

جامعة الشهيد زيان عاشور، الجلفة، الجزائر.

daoudi.m73@gmail.com

تاريخ ارسال المقال: 2021/06/06	تاريخ القبول: 2021/08/01	تاريخ النشر: 2021/09/01

*المؤلف المرسل

الملخص:

يعالج هذا المقال تاريخ البحرية الجزائرية من حيث تطورها تاريخيا منذ العصر الإسلامي وحتى الفترة العثمانية في الجزائر وما اكتسبته من مكانة دولية كبيرة ، كما يعالج الدور الجزائري اللافت من خلال بحريتها في انقاذ الأندلسيين ودعمهم ماديا ومعنويا ، بل وحتى عسكريا من خلال مقاومتهم للنصارى في الأندلس ، وذلك وفق مخططات وإستراتيجية منظمة ساهمت كثيرا في مد يد العون للأندلسيين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م.

الكلمات المفتاحية:البحرية الجزائرية ; الأندلس ; العهد العثماني; .إنقاذ الأندلسيين

Abstract :

This article deals with the history of the Algerian navy in terms of its historical development from the Islamic era until the Ottoman period in Algeria and what it gained from a great international prestige. It also deals with the remarkable Algerian role through its navy in saving the Andalusians and supporting them financially and morally, and even militarily through their resistance to the Christians in Andalusia. This is according to plans and an organized strategy that contributed a lot to extending a helping hand to the Andalusians after the fall of Granada in 1492 AD.

Keywords: Algerian Navy ; Andalus ; Ottoman era; Save the Andalusians.

مقدّمة:

ظل البحر دوما حاضرا في مجمل تطورات التاريخ الجزائري ، ولم يقتصر دوره على المساهمة في النشاط الاقتصادي والسياسي بل تعداه إلى أدوار أخرى ، كان أبرزها البعد الإنساني الخارجي الذي لعبته البحرية الجزائرية وهو بعد تشح الدراسات التاريخية في التركيز عليه سواء على خلفية انعدام وجود ""أرشيف بحري "" وطني يضم كل الأصول ذات الصلة بالنشاط البحري الجزائري ، باعتبار أن الخلفية التاريخية لإبراز حقيقة هذه البحرية في تلك الفترة تكمن في ثنايا تلك الأصول ، وقديما قالوا : " **إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها**"[1] ، أو نظرا لعدم شمولية تفكيرنا لمثل هذه القضايا ، ونحن نعيد قراءة وكتابة تاريخنا حيث انطلقنا في تخيلنا وكأنه معارك حربية وصراع سياسي واقتصادي وفقط ، وجرّدناه من أبعاده الأصيلة التي كانت أساسا للتحرك وعلى رأسها البعد الإنساني ، هذا البعد الذي لم نجد له اهتماما خاصا في قاموس كتاباتنا التاريخية ، وأصبح يشار إليه وكأنه علامة غريبة من حيث المنطلق والشعور والتفكير والتحرك.

لذلك فإن إعادة قراءة الدور البحري الجزائري في الدفاع عن الشعوب المظلومة يكتسي من الأهمية بمكان ومن أعظم هذه الأدوار الي أردنا أن نتوقف عليها في دراستنا هذه ، هو دور الجزائر في إنقاذ الأندلسيين عقب محنة الإبادة التي تعرضوا لها من قبل النصارى ، ولمعالجة هذه القضية والتعمق فيها ننطلق من الإشكال التالي :

كيف نشأت وتطورت البحرية الجزائرية ، وكيف كان دورها في إنقاذ ودعم الأندلسيين بعد سقوط قرطاجة سنة 1492م؟

ولمعالجة هذا الإشكال والتفصيل فيه نجزئه للتساؤلات التالية :

كيف نشأة البحرية الجزائرية قبل وبعد الإرتباط الجزائري العثماني ؟ وكيف كان دورها في مساندة القضايا الإنسانية الخارجية في نشاطها البحري خاصة المحنة الأندلسية عقب سقوط غرناطة سنة 1492م ؟

01: نشأة البحرية الجزائرية ومكانتها الدولية:

الحديث عن البحرية الجزائرية ونشأتها ينبغي أن لا يربط فقط بالتواجد العثماني في الجزائر ، رغم الزخم الكبير والمنجزات العظمى خلال تلك المرحلة ، ورغم أن البحرية في العهد العثماني تختلف تماما عن ما قبلها من عصور ، لا في المكانة ولا في الدور ولا في القوة والاتساع ، ولكن في المقابل ما كان لها أن ترتق كل هذه المراتب لولا تراكم الاهتمام البحري السابق في المنطقة ، وبالتالي فإن القراءة المتوازنة لهذا الجانب تجعلنا نميّزه بمراحل تاريخية متدرجة ومتراكمة كانت نواة لتشكيل تلك البحرية الجزائرية وبزوغها كقوة عظمى في العهد العثماني ، يضاف إلى ذلك كله المتغيرات التي حصلت تباعا عبر العصور سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، وبأبعادها المختلفة داخليا ودوليا ، ومن هنا ومن أجل الولوج في الحديث عن نشأة البحرية الجزائرية ومكانتها الدولية إبّان العهد العثماني ينبغي فهم صورة الاهتمام البحري في المنطقة قبل بزوغ العهد العثماني والعوامل المستجدة التي عجّلت بالارتباط الجزائري العثماني داخليا وخارجيا ، وميلاد الأسطول البحري الجزائري ومعه دولة الجزائر الحديثة.

1-1 ـ البحرية الجزائرية قبيل الارتباط مع الدولة العثمانية :

المتتبع لتاريخ الجزائر البحري يجده يحمل سمة الثراء والتنوع والتأثير ، وهو أمر طبيعي بالنظر لارتباط البحر بمجمل شؤون هذا القطر ، وكذا الموقع الجغرافي المؤثر للجزائر ، والذي جعلها جزء في مجمل أحداث حوض البحر الأبيض المتوسط ، تأثيرا أو تأثرا ، سلما أو حربا ، وذلك منذ أقدم العصور .

وإذا خصصنا هذا التطور البحري بالدراسة عبر تاريخه الطويل ، فإننا نجده يحمل ذات السمة من حيث الثراء والتنوع والتأثير ، وذلك عبر مجمل المراحل التي قد مرّ بها ، سواء في الفترة التي سبقت الفتح الإسلام لهذه البلاد ،

أو الفترة التي أعقبت ذلك ، والتي أصبحت فيها هذه القوة ، تصنف ضمن الأسطول البحري للمغرب الإسلامي ، وكان نشاطها في السلم أو في الحرب فيها يرتبط ارتباطا وثيقا بنشاط هذا الأسطول .

ونرى تباعا بعد الفتح الإسلامي لهذه البلاد بداية تشكل القوة البحرية للمغرب الإسلامي ، ولو بأشكال بسيطة وكان ميزتها التطور باستمرار ، بصفة متناسقة مع خصوصيتها وأهدافها المسطرة عبر كل مرحلة ، فما كان يميزها في البدايات هو محاولة التحكم في الجانب الدفاعي ضد القوة البيزنطية التي كانت تشكّل أخطارا بحرية هائلة على بلاد المغرب ، ومع مرور الوقت وتطور الأهداف ما بعد استكمال الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، بدأت هذه القوة البحرية الإسلامية الناشئة في بلاد المغرب ترتقي في مهامها البحرية مرتقيات عليا ، فبعدما كان دورها يقتصر على التصدي للخطر البيزنطي ، تعدّت فيها مرحلة الدفاع البحري ضد القوة البيزنطية ، إلى مرحلة الهجوم البحري على سواحل شريط الجنوب الأوربي ، في محاولات للفتح الإسلامي لهذه البلاد وأن الانتقال من مرحلة التصدّي إلى مرحلة التحدّي ، قد سبقته مرحلة البناء البحري في المغرب الإسلامي ، من خلال إنشاء دار السفن بأفريقيّة بتوجيهات من الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز (101-99هـ) رضي الله عنه ، واستقدموا لأجل ذلك الصنّاع المهرة لهذا الغرض من مصر وغيرها ، مما جعل هذه البحرية تنتقل من دور التصدي إلى دور التحدي ، وذلك بإنجاز مهام كبرى أبرزها العبور إلى الأندلس (92هـ/711م) ، وفي فرض سيادة المسلمين على جزيرة سردينيا سنة (752م) وسواحل جنوب إيطاليا سنة (821م) ، وفي العمل على فتح صقلية بعد عدّة محاولات بحرية (720 ـ 752م) ، وذلك قبل أن يستكمل المسلمون الاستيلاء عليها بقيادة الفقيه أسد بن الفرات في عهد زيادة الله الأول الأغلبي ، وزادت أهمية هذه البحرية في عهد الفاطميين بالمهدية سنة (972م) ، إذ قدّرت بعض المصادر عدد قطع الأسطول في عهد المعز لدين الله الفاطمي قبل انتقاله إلى مصر بـ 600 قطعة بحرية[2] ، مما يظهر التطور المطّرد لهذه البحرية طيلة هذه الفترات التاريخية ، واكتسابها ميزات القوّة والسيطرة والتأثير ، والتي فتحت باب البحر واسعا لأسطول المغرب الإسلامي ، وفي ذلك يقول ابن خلدون:" إن التفرق المغربي في البحر المتوسط الغربي بدأ في نهاية القرن الثامن و بالأخص بعد فتح صقلية سنة 827م والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العداوة الشمالية فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن في ممالكهم"[3].

وبالتالي فإن اكتساب الثقافة البحرية بكل أشكالها ، هو أصيل في هذه البلاد ، أصالة البحر فيها ، والحديث عن اكتسابها مطلقا من الآخر الذي مرّ تباعا على هذه البلاد بحسب الظروف التاريخية المختلفة ، هو كلام غير دقيق وغير منطقي ، صحيح أن التأثير والتأثر هو سنة حياة بين الشعوب ، لكن تجريد الشعوب من كل ثقافة وربطها بثقافات الآخر هو أمر لا يجانب الحقائق التاريخية والسنن التي بنيت عليها حياة المجتمعات .

ومع التغيرات السياسية اللاحقة وتجزؤ بلاد المغرب الإسلامي إلى دويلات وكيانات سياسية مستقلة ، بدأت تظهر تباعا نتاج هذا التجزؤ ، انفصالا في بناء القوة البحرية لدى كل كيان سياسي ، ومن ذلك بلاد المغرب الأوسط ، التي بدأت بحريتها تتميز بنوع من الاستقلال عن باقي الأساطيل في كلا المغربين ، وأصبحت تشكّل قوة بحرية خاصة ، كان لها دور مهم في مواجهة التحدّي المسيحي على عهد الحمّاديين (1163م)، والمرابطين (1147م) والموحّدين (1226م) ، وتركّزت قواعدها في مدن (عنابة ، بجاية ، دلس وهران والمرسى الكبير وأرشقول وهنين) ، وأثناء ذلك أصبحت القطع البحرية الوسيلة الفعالة في الدفاع عن السواحل الجزائرية ورد الهجمات الأوربية عنها ، رغم ظهور قوة النورمان البحرية واختلال التوازن بالبحر المتوسط بفعل تزايد قوة النصارى البحرية ، وقد ظلت بجاية وحتى بعد سقوط دولة الموحدين وضعف دولة بني عبد الواد بتلمسان ، وبني حفص بتونس قاعدة بحرية مهمة تنطلق منها وحدات بحرية المغرب الأوسط لمواجهة الأساطيل المسيحية المغيرة على السواحل[4] .

1– 2 ـ بزوغ البحرية في العهد العثماني ومكانتها الدولية:

مع اشتداد التكالب الأوروبي على السواحل الجنوبية لحوض البحر المتوسط ، بهدف السيطرة على مكامن القوة في بلاد المغرب الإسلامي ، ومنها بلاد المغرب الأوسط ، هذه الأخيرة التي بدأت في ظل هذه الظروف الجديدة تشهد تغيرات مهمة ، تواكب هذه التحولات ، لأن الوقت يحتّم اكتساب القوة لمواجهة خطر السقوط بيد الاحتلال النصراني الذي بدأ يضرب تباعا في سواحل هذه البلاد ، وما كان من بدّ إلاّ الاستنجاد بقوة الإخوة بربروس البحرية المستقلة لمواجهة هذه التحدّيات ، باعتبارها تمثّل القوة البحرية الإسلامية الوحيدة الحرة والمنظمة والمتمرّسة في الجهاد البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط[5] ، والتي يمكن أن تخلّصهما من هذا التكالب النصراني ، باعتبار أن هذه القوة ما وجدت في الأساس إلاّ انطلاقا من شعار (نجدة أهل الإسلام) في الأندلس ، ولكن مع المستجدات الحاصلة في سواحل بلاد المغرب ، وطلب النجدة من قبل أهل الجزائر ، اتخذ الإخوة بربروس قرارين تاريخيين مهمين ،كان لهما أبلغ الأثر في ما حدث من تطورات وتغيرات جذرية في ميزان القوى على مستوى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتأثيرات ذلك في ظهور منظومة تغيرات كبيرة على مستوى القوى الدولية ، وإن شئنا القول فإن هذه القرارات كانت المفتاح الأبرز في ظهور نظام قوى دولي جديدة ، يختلف تماما عن الواقع السابق.

ويمكن أن نقف على هذين القرارين الهامين في الآتي :

أولا: في الاستجابة لاستنجاد أهل الجزائر بهم ، وبناء على هذا تحرّكت قوة الإخوة بربروس ونصرت أهل الجزائر وامتدّت حتى نواحي وهران وتلمسان ، وقد أكسب هذا التحرك رؤى جديدة للإخوة بربروس في المستجدات

الدولية الحاصلة ، خاصة على مستوى حوض البحر المتوسط ، وهي أن قوة النصارى قد زادت وأن مواجهتها بهذه القوة الحالية ، والاعتماد على العنصر المحلي فقط ، لا يمكن أن يحقق أهداف التصدي للنصارى إذا لم يرتبط بقوة الإسلام الصاعدة برا وبحرا ، والمتمثلة في الدولة العثمانية.

ثانيا : بعد حوار كبير وتناول مختلف الاحتمالات ، كان القرار الكبير بين خير الدين بربروس وأهل الجزائر والمتمثّل في **الارتباط بالدولة العثمانية** لأنهم أهل إسلام ، ويحملون ذات الأهداف المشتركة في محاربة النصارى ونصرة الإسلام ، وقد نتج عن هذا القرار مرحلة جديدة للجزائر ولحوض البحر المتوسط ، وذلك بظهور الدولة الجزائرية الحديثة وتطورها في نطاق الخلافة الإسلامية العثمانية " 1518-1830 م " .

وبظهور الدولة الجزائرية الحديثة المرتبطة استراتيجيا بالباب العالي ، بدت معالم القوة في البحر المتوسط تتغير تباعا ، ليس في كسر قوة اندفاع وتكالب النصارى على بلاد المغرب عموما فقط ، بل تعدّتها إلى كرّة القوة الإسلامية من جديد على أوروبا ، ولكن هذه المرة من باب التحالف الإسلامي العثماني الجزائري مع بدايات القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، ومعه بدأ يبزغ نجم البحرية الجزائرية الحديثة بعد مخاض عسير وفي ظل صراع دولي عنيف في السيطرة على سواحل حوض البحر المتوسط ، وقد أكّسبها التحكّم الجيّد في خيوط هذا الصراع شبه هيمنة على حوض هذا البحر ، وتشكّيله قوة بحرية أخذت بعين الاعتبار كل التطورات البحرية الدولية الحاصلة ، والتي جعلت لها الكلمة الطولي في حوض البحر الأبيض المتوسط .

وكان كسبها لرهان القوة البحرية منذ البدايات ، هو نتاج سياسة مؤسسة ذات إستراتيجية بعيدة الأمد ، أخذت بعين الاعتبار أن مكّمن القوة الحالي هو التحكّم في مفاصل البحر المتوسط ، وأن هذا التحكّم يقوم أساسا على التحكّم ابتداء في الصناعة البحرية ، لذلك قامت السلطة الناشئة في الجزائر بتشجيع نشاط صناعة السفن، وقوارب الصّيد ، التي كانت موزعة على عدة مدن جزائرية كشرشال وجيجل، وعنابة ، ووهران ، والتي تخصصت في صناعة السفن التي تصل حمولتها إلى 400 طن، والمجهزة بعشرين أو حتى ثلاثين مدفعا، يضاف إلى ذلك كله وجود إستراتيجية بحرية بعيدة المدى برزت من خلال ، وجود سفن صغيرة تتميز بخفة الحركة والسرعة، وهذا النوع عرف باسم "القاليوطات" و"البريكات" أي "Galiates" و "Bringnatus" ، كما تخصص ميناء الجزائر منذ القرن السابع عشر بصناعة السفن المستديرة التي كانت متخصصة في الإبحار بأعالي البحار، وهذا النوع عرف باسم "Galères"، وبفضل هذه الأنواع من السفن استطاع رجال البحر الجزائريين الوصول إلى مناطق بعيدة حتى سواحل ماديرا Madère عام 1616، وشواطئ اسكتلندا عام 1617، وإنجلترا عام 1631.[6]

وبالتالي يتأكّد لنا بأن صناعة هذا الأنواع من السفن إن دلّ على شيء ، فإنما يدلّ على رغبة الدولة الجزائر الحديثة في بسط نفوذها إلى أبعد من البحر المتوسط ، والحديث هنا عن أعالي البحار ، وتشكّل المعرفة والثقافة البحرية لما أبعد من محيطها البحري ، وقد تكوّنت لها تلك الثقافة من خلال المشاركة البحرية مع الأسطول العثماني في مهامه البحرية عبر مختلف مراحل ومحطات الصراع البحري مع الدول الأوروبية ، يضاف إلى كل ذلك صدامها البحري المستمر والمتكرر مع القوى الأجنبية الغربية ، والذي خبرت من خلاله البحرية الجزائرية ثغرات الضعف الأوربي ، ومواطن التحكّم البحري الذي يقود إلى التحكّم الجيّد في السياسة الدولية ، كل ذلك أكسبها احترافية بحرية كبيرة كان ميزتها الإبداع ، من خلال الاستخدام الجيّد للتقنية البحرية والدقة في استعمال الخرائط واستخدام آليات الاتجاه البحري كالبوصلة وغيرها ، بالإضافة إلى تطويرها لصناعة السلاح البحري ، خاصة صناعة المدافع بما لم تصله أي قوة دولية آنذاك ، كصناعة المدفع العملاق الذي يعدّ سبق بحري جزائري في هذا المجال ، كان له الأثر الكبير في انتصارات الجزائر البحرية في كثير من المحطات ، وقد صنف هذا المدفع كأقدم أسير جزائري في فرنسا ، إنه مدفع (بابا مرزوق) ، الذي ارتبط تاريخه بالجهاد والقوة البحرية للأسطول الجزائري ، وقد صنع سنة (1542م) بمصنع دار النحاس ، بلغ طوله أزيد من سبعة أمتار وبوزن اثني عشر طنا ، له قوة دفع تصل إلى ما يقارب خمس كيلومترات ، وقد خولته هذه الميزات أن يكون الحارس الأمين للعاصمة طيلة فترة الدولة الجزائرية الحديثة.

وقد جاء وصف القوة للبحرية الجزائرية على لسان حال الأوربيين أنفسهم ، ومن ذلك ما قاله السفير الانجليزي كوتنغهام (Cottingham) ، في موطن اندهاشه بما وصلت إليه البحرية الجزائرية ، حينما قال: (إن قوة واندفاع قراصنة شمال إفريقيا (البحارة الجزائريين) جعلهم على نحو كبير من الضخامة والمكانة ، سواء في البحر الأبيض المتوسط ، أو في المحيط الأطلسي ، وأشهد أنني لم أرى في حياتي شيئا قد جلب إلى البلاط الإسباني الأسى العميق ، والخراب الكثير غير هؤلاء القراصنة)[7] ، وكذلك ما ذكره الأسير " دييغو دي هايدو" " Diego de Haédo " حينما وصف البحارة الجزائريين بقوله: (... يبحرون شتاء وربيعا دون خوف ، ويجوبون البحر المتوسط من شرقه إلى غربه ، دون أن يعيروا أي اهتمام لمراكبنا مستهزئين ببحارتنا الذين يستأنسون بملاهي الموانئ المسيحية ، حتى يخيل للمرء أنهم يخرجون لصيد الأرانب البرية ، فيقتلون واحد هنا والآخر هناك ، وهذا راجع لكون المراكب الجزائرية خفيفة تسبق الريح على عكس المراكب المسيحية الثقيلة التي لا تستطيع مطاردتها ومنعها من الغزو حسبما يحلوا لها ، والقراصنة الجزائريين يهتمون جدا بالنظام والنظافة وتنظيم المراكب للابحار .....)[8].

ومع كل هذا التطور وما حققته البحرية الجزائرية من مكتسبات هائلة ، باتت مهمة الأسطول الجزائري لا تقتصر على حماية الحدود الساحلية الجزائرية وضمان مصالح الدولة الجزائرية الحديثة أثناء العهد العثماني(1518-1830م) فقط ، بل تعدّتها إلى تحقيق مكانة بحرية لها تأثيرها في تطوّرات الأوضاع الدولية ، جعلت منها الذراع الأقوى الذي لا يستغني عليه الأسطول البحري العثماني في كل حروبه ضد القوى الغربية المتربصة بها[9] ، كما شكّلت المدد الأنفس للعثمانيين من خلال مدّها بالقادة المتمرسين بحريا ، للاستعانة بهم في قادة الأسطول البحري العثماني ، ومن هؤلاء نجد[10]:

ـ **علي باشا:** الذي كان جنديا في إيالة الجزائر، ثم تحول إلى وكيل لها في اسطنبول، ونظرا لما أبداه من شجاعة وانضباط في العمل، فقد استدعاه السلطان سليم الثالث عام 1807 لدراسة أسباب الأزمة السياسية التي حدثت بين الدولة العثمانية وبريطانيا التي بدأت تهدد العاصمة اسطنبول، وكلفه بقيادة الأسطول العثماني، وبقي في هذا المنصب أيضا في عهد السلطان محمود الثاني (1808) .

ـ **طاهر باشا:** الذي كانت له سمعة كبيرة في الباب العالي، وهو الذي كان جنديا أيضا في إيالة الجزائر، ثم تحوّل إلى جندي في فرقة المدفعية بالبحرية العثمانية ، ونظرا لخبرته العسكرية ، وإتقانه لعدة لغات أجنبية فإنه اشتهر بين رؤساء البحر ، وفتحت أمامه الأبواب لتولي المناصب العليا في الأسطول العثماني.

مع كل مظاهر القوة التي تميّزت بها البحرية الجزائرية ، والتي جعلتها تبسط سيادتها البحرية إلى أبعد من البحر من المتوسط ، وما انعكس على كل ذلك من مشاعر المسؤولية اتجاه الشعوب من الباب الإنساني ، من خلال الوقوف إلى جانب تلك الشعوب المظلومة ، حتى بات هذا البعد يمثل نشاطا بارزا ولافتا في تحركات البحرية الجزائرية التي نشأت نواتها أصلا منذ البدايات تحت شعار (الإنقاذ) ، ومن أبرز نماذجها وقوفها ودعمها للأندلسيين جراء حرب الإبادة التي تعرضوا لها من قبل النصاري ولم يستثنوا في ذلك حتى اليهود.

02 - دور البحرية الجزائرية في إنقاذ ومساندة الأندلسيين في محنتهم :

ارتبط التاريخ الأندلسي عبر العصور في مختلف جوانبه ارتباطا وثيقا بتطور الأحداث في بلاد المغرب ، مثلما تأثّرت أيضا بلاد المغرب بتطور الأحداث في الضفة الأندلسية ، وبناء على هذا التأثير والتأثر ، لم يشذ أيضا تاريخ البحرية عن ذلك ، باعتبار أن الأندلس كانت حاضرة في مجمل مراحل تكوين الأسطول البحري لهذه البلدان مثلما أشرنا ، بدليل أن الأمر الأكبر الذي جعل المرابطين أو الموحدين أو المرينيين أو من قبلهم ، يهتمّون ببناء الأساطيل وتعميرها كان بسبب الأوضاع في الأندلس والرغبة في الاستجابة لنداء أهلها ، وحبا لجهاد أعدائها.

فالنكبة الأندلسية وحرب الإبادة فيها كانت حاضرة بقوة في بزوغ نجمي التغيير في تاريخ بلدان المغرب وحوض البحر المتوسط عموما ، الإخوة بربروسا (عروج وخير الدين) ، ومعهما تم تشكيل الدولة الجزائرية الحديثة ونواة أسطولها البحري الذي سيكون له الكلمة الطولى في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتحمّله عبء نصرة

وإنقاذ الأندلسيين بشتى طوائفهم من تلك الإبادة الجماعية التي تعرضوا لها خاصة بعد سقوط غرناطة (897هـ-1492م) هذه النكبة التي لم تعرف البشرية طيلة تاريخها الطويل أبشع وأمرّ منها لدرجة تقنينها بالمراسيم والأوامر الملكية ، حيث صدر عام (897هـ-1492م) قانون الجريمة الإنسانية القاضي بتجريم المسلمين وتحريم إقامة شعائرهم الدينية وإغلاق المساجد ، كما قام الكاريدينال (خمينيث) بإحراق عشرات الآلاف من الكتب[11] .

وفي (907هـ/ 1501م) منع على المسلمين حمل السلاح ، وأعطيت لهم مهلة ثلاثة أيام لمغادرة الأندلس والمخالف لذلك يحكم عليه بالموت من قبل محاكم التفتيش المقامة من أجل ذلك الغرض[12] ، ولم يترك لهم خيارا يخفف عنهم هذه النكبة إلاّ إجبارية التنصير والردة عن الإسلام بناء على المرسوم الملكي المؤرخ في (908هـ/ 1502م) من قبل الملكة إيزابيلا والذي خيّر فيه أهل الأندلس إما بالتنصر أو مغادرة غرناطة وكل بلاد الأندلس ، ولا يبقى ذكر فوق سن الرابعة عشر أو أنثى فوق سن الثانية عشر بعد شهر ابريل من تلك السنة إلاّ إذا تنصروا ، وخلال هذه المدة رحل عن غرناطة أزيد من ثلاثمائة أندلسي واعتبر الباقين متنصرين بموجب المرسوم ، وأطلق على هؤلاء اسم (النصارى الجدد) أو (الأندلسيين المواركة) ، حتى هؤلاء الذين تنصروا صدر في حقهم أمر ملكي يوم (22 ربيع الأولى 917هـ/ 20 يونيو 1511م) يلزمهم بأن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم لمحاكم التفتيش وأن لا يتخاطبوا باللغة العربية وتعددت نحوهم لوائح الممنوعات التي تحضر الختان ، وقتل كل مختن ، ومنع الوقوف اتجاه القبلة ، كما حضر الاستحمام والاغتسال وارتداء الملابس العربية ، وراح ضحية هذه المحنة عشرات الآلاف وبأبشع صور التعذيب والقتل .

المتتبع لقصة المحنة الأندلسية ومدّ يد العون لها ، لا يجدها ترتبط فقط بسقوط غرناطة سنة (1492م) ، بل المحنة كانت طويلة امتدت قبل ذلك التاريخ بزمن طويل ، كان فيها للمغرب الأوسط دور لا فت في نصرة إخوانه المضطهدين ، وكانت مراسلات ووفود النجدة وطلب العون لا تنقطع بين الضفتين ، الأندلسية والمغربية ، ومن ذلك ما قام به سلطان دولة بني نصر ، (أبو عبد الله محمد الخامس) ملك غرناطة ، والذي أرسل وفدا إلى تلمسان سنة (763هـ/ 1361م) ، يطلب عبره العون والمدد من السلطان الزياني (أبو حمو موسى الثاني ت 1389م) ، وكان على رأس هذا الوفد الكاتب ابراهيم بن الحاج ، والذي وصف للسلطان حال الأندلس وحاجتها للغذاء والعون المادي ، فكان ردّ السلطان سريعا ومع ذات الوفد ، حيث قرر منحهم خمسين ألف قدح من الزرع ، وثلاثة آلاف قطعة ذهبية من النقود ، لتوفير السفن وشحنها إلى الأندلس[13] .

إلاّ أن العبء الأكبر في مساعدة وإنقاذ الأندلسيين تحمّلته الدولة الجزائرية الناشئة حديثا (1518م) ، من خلال أسطولها البحري الذي نشأت نواته الأولى بقيادة الأخوين عروج وخير الدين من رحم المحنة الأندلسية

وشعار الإنقاذ الذي كان السبب الأول في بزوغ نجميهما ، خاصة بعد استغاثة الأندلسيين بهما وطلب النصرة وقد تمت الاستجابة لذلك **عبر ثلاث مخططات هامة** :

المخطط الأول : ويهدف إلى إنقاذ الأطفال والنساء والمشردين الذين حوصروا وطردوا من الأندلس ، وأصبحوا بين خيارين أحلاهما مرّ ، فإما أن يبادوا داخل وطنهم وإما أن يهاجروا ويتركوا الأوطان نحو بلاد إخوانهم في بلاد المغرب عساهم يشتمّون من خلالها رائحة الأندلس ، وقد استمر هذا المخطط طيلة القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وذلك بواسطة الأسطول البحري الجزائري ، الذي كان يقوم بحملات بحرية علنية وسرية لإخلاء الأندلسيين نحو بلاد المغرب خاصة الجزائر ، حيث أرسلت سنة (935هـ/1528م) حملة بقيادة القائد (صالح رايس) ، و(أيدن رايس) لإنقاذ ستمائة من مسلمي بلنسية المضطهدين عند مصب نهر أوفيلا(ovila) وقد خاضوا معركة بحرية عنيفة ضد البحرية المسيحية الإسبانية في مياه الجزائر الشرقية (البليار) ، وفي سنة (992هـ/1584م) قام القائد حسن فينزيانو بنقل أكثر من ألفي أندلسي إلى الجزائر من نواحي (اليكانت)[14] ، وبين هذين الحملتين توالت بعوث خير الدين إلى الشواطئ الإسبانية حيث بلغت بحسب الروايات التاريخية ثلاث وثلاثون حملة بحرية ناجحة بين سنتي (1584/1528م) ، وكان من أبرزها تلك الحملة التي قادها خير الدين نفسه ، حيث ذهب في ستة وثلاثين سفينة ناحية الأندلس نقل فيهم عدد كبير من الأندلسيين إلى الجزائر وترك ألف مقاتل لحراسة الأندلسيين الباقين وتكررت عملية الإنقاذ هذه سبع مرات متتالية ، حتى بلغ ما نقلته سفن خير الدين لوحده إلى شواطئ بلاد المغرب نحو سبعين ألف أندلسي[15] ، وبالجملة فإن عدد الأندلسيين المطرودين حسب رواية المؤرخ الإسباني (نافاريتي) بلغت خمسة ملايين نسمة منهم مليونان من اليهود ، وقد كان عدد سكان إسبانيا كلها يومئذ ثمانية ملايين نسمة[16] .

المخطط الثاني : وكان يقوم على إستراتيجيّتين ، الأولى : على توفير المتطلّبات المادية للأندلسيين المحاصرين والمجوّعين في بلادهم ، والثانية من خلال التكفّل بأولئك الأندلسيين الفارّين بدينهم وحياتهم ، أو المرحّلين من بلادهم ظلما وعدوانا نحو بلاد المغرب ، وتوفير لهم جلّ المتطلبات التي تجعلهم جزء من هذه البلاد ، والاستفادة من كل خبراتهم ومعارفهم ومقوّماتهم الحضارية في تنمية وتطوير كثير من الجوانب التي تحتاجها هذه البلاد ، وكانت الجزائر أميز بلاد المغرب في التعامل مع الأندلسيين ، حيث أن خير الدين ومن ورائه أهل الجزائر قد أكرموا الأندلسيين أيّما إكرام ووسعوا لهم في أرضهم ، وتركوا لهم حرية الاختيار والتنقل في البقاع والأماكن الصالحة لسكنهم ومزاولة حرفهم وأنماط حياتهم الأندلسية .

و تذكر الكتابات التاريخية ، المؤرخة للهجرة الأندلسية نحو بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) ، بأن قوّة انتشارهم في سواحلها كان انطلاقا من القرن الثالث عشر الهجري ، وبمجرد استقرارهم في هذه البلاد ، بدأت تظهر مظاهر

اجتماعية وتنموية جديدة ، كانت نتاجا للثراء الحضاري الأندلسي فيها ، من خلال توظيف ما يملكون من مقومات حضارية في واقع الحياة في الجزائر ، من خلال مناهج التعليم ، والخبرات التقنية في الصناعة والزراعة ، كما برعوا بالإفادة في تطوير الموانئ والصناعة البحرية خاصة في مجال السفن ، ومن ذلك ميناء بجاية ، وكان لهم دور بارز في فعالية المواجهة البحرية لقوى النصارى[17] .

واللافت أن الأسر المهاجرة إلى الجزائر كان كثير منها من الأسر الأندلسية الوجيهة ، والرجال الأعلام ذوي الشأن ، والتي كان لها أبلغ الأثر في الميادين العلمية والاقتصادية ، كان لبجاية الناصرية الحظ الكبير منهم[18] ، كما كان لمدينة القل في الشرق الجزائري ، وفادة قشتالية وأندلسية مهمة ، كان لها الأثر البارز في هذه المدينة ، التي وصفها مارمول كربخال بمدينة المهاجرين الأندلسيين[19] ، وبالمجمل فإن شريط الساحل الجزائري من غربه إلى شرقه ، مع امتداده داخليا قد كان وجهة واستقرار للمهاجرين الأندلسيين ، خصوصا بعد سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأندلس ، وكذا قيام دولة الجزائر الحديثة المرتبطة استراتيجيا بدولة الإسلام العثمانية ، وكانت أهم المراكز التي استقطبت هؤلاء المهاجرين من أجل الاستقرار هي[20]:

من الغرب ، وهران ونواحيها ومستغانم وآرزيو وجهاتها وتلمسان وقلعة بني راشد ومازونة وندرومة ، ومن الشرق استقرت الجاليات الأندلسية في كل من بجاية وجيجل والقل وقسنطينة وبونة(عنابة) والقالة ، أما الوسط فكان منذ بدايات الهجرات الأولى محطّ استقرار بعض الجاليات الثغرية القادمة من وشقة وسرقسطة البيضاء وبطليوس بالغرب(البرتغال) ، حيث شملت مدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال وملیانة والمدية .

والدارس للتاريخ العمراني ، يلفت انتباهه ، مواكبة هجراتهم إلى الجزائر ، منذ بدايات النكبة الأندلسية وما بعدها تواليا في العصر الحديث ، نشأة ما يمكن أن نطلق عليه (العمران الأندلسي في بلاد المغرب) ، وذلك من خلال إنشائهم لمدن جديدة في الجزائر كان للأندلسيين الفضل الكبير في إعمارها وإبرازها وتميّزها وإكسابها خصوصية أندلسية لوقت طويل ، كمدن لها شأن كباقي الحواضر الكبرى في الجزائر ، ومن نماذج ذلك : مدينة البليدة ، وتنس .. وغيرها.

المخطط الثالث: وكان شعاره دعم المقاومة الأندلسية لأولئك النصارى الغاصبين ، خاصة ثورة جبال البشرات التي اندلعت يوم 15 ابريل 1568م والتي قادها في البداية أحد المستضعفين المدعو فرج بن فرج والذي خرج في مائتين من المسلمين الذين يخفون إسلامهم وفتك بحامية الحمراء[21] ، ثم لجئوا إلى جبال البشرات ولحق بهم كل المسلمين الذين يريدون الخلاص من النير الإسباني واختاروا حينها (فيرناندو دي فالور) قائدا عاما للثورة والتي شملت في توسعها كل بلاد غرناطة القديمة قبل التسليم ، وكانت مطالبهم فيها للنصارى المحتلين تمثل الحد الأدنى من الحقوق والمتمثلة في إلغاء القوانين الظالمة والعودة إلى بنود معاهدة التسليم المهينة التي وقّعها أبو عبد الله

الصغير(1460-1527م) ، وبعد ما تسامع بيلرباي الجزائر (قلج علي) (1568 . 1571م) قيام هذه الثورة الأندلسية ، عقد اجتماعا طارئا لآهالي الجزائر في أحد المساجد ، تناقشوا فيه المحنة الأندلسية وضرورة مساعدة إخوانهم خصوصا الذي يقودون حاليا ثورة جبال البشرات ، وكان التفاعل كبيرا من أهالي الجزائر ، الذين بادروا إلى جمع السلاح واختيار المتطوعين للاشتراك في الثورة الأندلسية القائمة ، وقد بلغ عدد المتطوعين أربعة آلاف رجل ، نقلوا سنة (976هـ/1568م) عبر الأسطول البحري الجزائري إلى جبال البشرات لنصرة إخوانهم الأندلسيين[22] ، وقد أنزل هذه الإمدادات بشاطئ (المرية) ، وفي العام التالي أرسل أيضا من الجزائر العتاد والذخائر مع المتطوعين أيضا لمساندة مجاهدي الأندلس ، مع أن الأسطول البحري الجزائري لم يكتفي بالشحن ونقل المهاجرين بل مارس قبل هذه الثورة وبعدها ضغطا كبيرا على السواحل الإسبانية من خلال القيام بحملات منظمة نحو السواحل الإسبانية بقصد الضغط على النصارى أو الإسبان ، وإضعافهم ، وكان من أبرز تلك الحملات حملة (صالح رايس) الذي قام بمهاجمة السواحل الإسبانية سنة (1543م) وخوضه معركة (روزاس با لا موس Rosas Palamos)[23] ، وحملة (علج علي) سنة (978-977هـ/ 1569-1570م) الذي قام بضربات متكررة خلال هذه السنة على السواحل الإسبانية ومالطا ، إضافة إلى الحملة البحرية لسنة (989هـ/ 1581م) وغارة (مراد رايس) على (لورقة) وإلحاقه خسائر جسيمة بالسواحل الإسبانية سنة (1602م) وقد أتبعها هذا القائد بحملته الشهيرة سنة (1026هـ/ 1617م) على جزيرة (ماديرة) في المحيط الأطلسي ، والتي عاد فيها إلى الجزائر بأجراس كنيستها وذلك إذلالا للبرتغال[24] .

وخلاصة القول أن نشاط البحرية الجزائرية طيلة تاريخها الطويل لم يبق حبيس الحدود الإقليمية للجزائر ولم تقف عند حدود مصالحها الشخصية وإنما تعدّتها إلى المساندة والوقوف إلى جانب الشعوب المظلومة في تحرك إنساني شهدت عليه محطات تاريخية متعددة ،اكتفينا بالإشارة إلى النموذج الأندلسي ، والملفت في التحرك الإنساني اتجاه المسألة الأندلسية أنها:

- لم يكن التحرك قرين مصلحة مادية أو شروط مسبقة مثلما تتعامل به كثير القوى الكبرى في مواقف تاريخية كثيرة .
- صورة تحرك البحرية الجزائرية لم يكن من منطلق الحقيقة المشتركة التي تجمعهم مع الشعوب المتحرك نحوهم بدليل أن عملية الإنقاذ والمساعدة للأندلسيين قد شملت المسلمين واليهود بالتوازي .
- حقيقة التحرك الإنساني للبحرية الجزائرية أملته المبادئ والقيم التي تكونت عليها هذه البحرية منذ نشأتها سواء العامة أثناء الفتح الإسلامي أو الخاصة تحت شعار الإنقاذ على يد الإخوة بربروسا .

التهميش

[1] ـ أسد رستم ، مصطلح التاريخ ، ط.3، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، ص.1 وما يليها

[2]– نصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات و أبحاث عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، ط2، دار البصائر، الجزائر ، (د.ت) ، ص130 ـ 131 .

[3]– عبد الرحمان ابن خلدون ، المقدمة ، ط2، دار الكتاب اللبناني ، بيروت – لبنان، (د.ت)، ص450 .

[4]– نصر الدين سعيدوني، مرجع سابق ، ص132 .

5 –للتعمق أكثر حول قصة الإخوة بربروسا أنظر: حاجي خليفة ، تحفة الكبار في أسفار البحار ، تحقيق وترجمة: محمد حرب ، تسنيم حرب ، ط.1 ، دار البشير للثقافة والعلوم ، 2016 ، ص.84 وما يليها.

6 – الجزائر مركز الدراسات التاريخية، وثائق تاريخ الجزائر العثماني، خ . هـ 58 –343 –1240..

7- DAN (Le Père), Histoire de Barbarie et de ses Corsaires. Paris ,Pierre Racolat, MDCLIX (1637), p315

8- Diego de Haédo, Histoire des Rois d'Alger ,traduit par :H.D.D.E .4 Grammont Adolphe, Jourdan ,Libraire-éditeur ,Alger,1881,p19.

9 – وليم سبنسر الجزائر في عهد رياس البحر، ص 60 –61.

10–الجزائر مركز الدراسات التاريخية وثائق التاريخ الجزائري والعثماني خ/ هـ 34358 (240).

11 – لوي كارديك ، الموريسكيون الأندلسيون و المسيحيون ، ترجمة عبد الجليل التميمي ، ط2 ، 1989م ، ص 69 وما بعدها.

12 – المقري ، نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، ج4 ، بيروت ، 1968م ، ص 527 / عادل سعيد شناوي ، الأندلسيون الموارکة ، ،ط1 ، مطابع أنتر ناشيونال ، القاهرة ، 1983م ، ص . 190–191)

13 – أبو العباس أحمد الناصر السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج.6 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1995 ، ص.11.

14– نصر الدين سعيدوني ، مرجع سابق ، ص 202 ، 203

15 – محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس القاهرة ، 1949م ، ص 284/ عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج3 ، ط.2، 1982 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص 56 .

16 – عبد الرحمان الجيلالي ، المرجع سابق، ص 53–54 .

17 – عبد الناصر جبّار ، بنو حفص والقوى الصليبية في غرب البحر المتوسط ، ص.131

18 – محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية ، تقديم : محمد الأمين بلغيث ، دار هومة ، الجزائر ، 2007 ، ص.3{

19– مارمول كربخال ، إفريقيا ، ترجمة: محمد حجي ، محمد زنيبر ، محمد الأخضر ، وآخرون ، ج.2 ، دار المعارف للنشر ، 1989 ، ص.362.

20– ناصر الدين سعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي، مجلة أوراق ، العدد.4 ، المعهد الأسباني العربي للثقافة ، مدريد،1984 ، ص:111–118.

21– عادل سعيد شناوي ،مرجع سابق ، 150 وما بعدها

22– محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس تاريخ العرب المتنصرين ، ط.4 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1987 ، ص.398.

23 – بحموش نعيمة. مساهمة بحرية أيالة الجزائر في حروب الإمبراطورية العثمانية البحرية .ماجيستير .ص 103.

24 – نصر الدين سعيدوني ، مرجع سابق ، ص ، 205 .

قائمة المصادر والمراجع :

الكتب :

ـ مولود قاسم نايت بلقاسم ، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م ، ج.2 ، ط.1 ، دار البعث ، الجزائر ، 1985 .

- رستم أسد ، مصطلح التاريخ ، ط.3، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت .

– خليفة حاجي ، تحفة الكبار في أسفار البحار ، تحقيق وترجمة: محمد حرب ، تسنيم حرب ، ط.1 ، دار البشير للثقافة والعلوم ، 2016 ، ص.84 وما يليها.

– لوي كارديك ، الموريسكيون الأندلسيون و المسيحيون ، ترجمة عبد الجليل التميمي ، ط2 ، 1989م .

– خضر خنافر: في الطغيان والاستبداد و الديكتاتورية, دار المنتخب العربي, 1995.

– – المقري ، نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، ج4 ، بيروت ، 1968م ، ص 527 .

– عادل سعيد شناوي ، الأندلسيون المواركة ، ،ط1 ، مطابع أنتر ناشيونال ، القاهرة ، 1983م .

– بحموش نعيمة. مساهمة بحرية أيالة الجزائر في حروب الإمبراطورية العثمانية البحرية .ماجيستير .ص 103.

– محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية ، تقديم : محمد الأمين بلغيث ، دار هومة ، الجزائر ، 2007 .

– مارمول كربخال ، إفريقيا ، ترجمة: محمد حجي ، محمد زنيبر ، محمد الأخضر ، وآخرون ، ج.2 ، دار المعارف للنشر ، 1989.

– محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس تاريخ العرب المتنصرين ، ط.4 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1987 .

. سعيدوني نصر الدين ، ورقات جزائرية ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، 2000 .

– سبنسر ، الجزائر في عهد رياس البحر.

– السلاوي أبو العباس أحمد الناصر ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج.6 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1995 .

– عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج3 ، ط.2، 1982 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .

– عبد الناصر جبّار ، بنو حفص والقوى الصليبية في غرب البحر المتوسط .

– ابن خلدون ابن خلدون ، المقدمة ، ط2، دار الكتاب اللبناني ، بيروت – لبنان، (د.ت)

24- DAN (Le Père), Histoire de Barbarie et de ses Corsaires. Paris ,Pierre Racolat, MDCLIX (1637),

24- Diego de Haédo, Histoire des Rois d'Alger ,traduit par :H.D.D.E .4 Grammont Adolphe, Jourdan ,Libraire-éditeur ,Alger,1881.

المقالات :

– ناصر الدين سعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي، مجلة أوراق ، العدد.4 ، المعهد الأسباني العربي للثقافة ، مدريد،1984 ، ص:111-118.

– الميلي محمد. موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر ، مجلة الأصالة ، ع.14-15 ، 1973.

. سعد الله أبو القاسم.منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر ، الأصالة ، ع. 14-15 ، 1973.